«فردوس أرضي» على قاعدة الرمز اليهودي

محمد الأسعد

يقترب الخطاب الغربي من القضية الفلسطينية عبر وسيط شهير هو التوراة؛ وكذلك الأمر حين يقارب هذا الخطاب اسرائيل. فهو لا يستطيع ان ينسى الموروث التوراتي الذي تشرّبت به أرضية الثقافة الغربية.

كان الحال كذلك منذ الرحلات الاستكشافية الاولى في القرن السابع عشر. انها رحلات استكشاف ومقاربة تبحث عن صورة في الجغرافيا البشرية والسياسية للشرق: صورة توراتيّة مكتوبة بلغة ملتبسة، لم تستقر قراءتها بحال من الاحوال، لا من الناحية التاريخية ولا من الناحية الجغرافية.

مثل هذه المقاربة هي من خصائص المسيحية الغربية، التي التبس عليها الامر في فترات تاريخية ماضية، فوحّدت بين أسطورة يهوه وديانة المسيح، وجعلت الاثنتين نصّاً واحداً.

الّا ان هذا النوع من التفكير الاسطوري ليس خاصاً بالقضية الفلسطينية، وليس بدعة في هذا المضمار. فلكل قضية، من قضايا العالم، في الرؤيا الغربية أسطورتها الملائمة على أساس العرق المتفوّق أو الجماعة المختارة.

فاذا تركنا جانباً أوروبا الهرمة، التي غابت الشمس الرأسمالية عنها لتطلع فتيّة في القارة الاميركية منذ أواخر القرن السابع عشر، نجد الخطاب السياسي الاميركي يكرّر الموضوعة الاسطورية عينها. انه يخترع واجباً ملقى على اميركا في الدفاع عن «الحرية» في العالم؛ ثمّ يقترب من موضوعة الأمّة «التي اختارها الله» لتكون قائدة وحامية العالم «من الشر»؛ وأخيراً يجعل من اميركا «أمّة المؤمنين» التي ستشهد نهاية العالم، أو الحرب الاخيرة بين الكفر والايمان.

ان ضرورة خلق أسطورة ما، أو استخدام أسطورة جاهزة، هي من خصائص التوسّع الاستعماري. وسواء أكانت الوسيلة الى ذلك ضربها على العملة النقدية، أم تضمينها في خطاب سياسي، أو ثقافي، أم تلقينها لجنود البحرية، فان هدفها لا يتغيّر: انه تبرير حركة التوسّع والاستيلاء على مقدّرات الشعوب. أمّا جذرها، فلا يتغيّر أيضاً: انه الرسالة التي تحملها «الجماعة المختارة» لـ «تمدين المتوحّشين والارهابيين والوثنيين والاغيار»، والدفاع عن الحرية والديمقراطية وتنفيذ «الوعد الالهي» باقامة مملكة الجماعة، سواء في أميركا الهنود الحمر، أم في فلسطين العربية، أم في أطراف القارة الافريقية.

الّا ان الاسطورة في فلسطين العربية لا تشبه مثيلاتها في مناطق أخرى تماماً، لا من حيث ردّ الفعل عليها في الغرب، ولا من حيث ردّ الفعل عليها في الاوساط العربية. فهي تستند، على الساحة الغربية، الى تراث ثقافي متين، وتستند، على الساحة العربية، الى أنصار يدّعون بالنهج الاكثر